ما وراء الجانب الآخر

ترجمة : فتحي أبو رفيعة

كان جهاز البيدومتر الذي أحمله (وهو جهاز يعد الخطوات التي اقطعها في الطريق) يشير الى انني لم اكن قطعت اكثر من خمسة وعشرين ميلا . ورغم انه كان شيئا مؤسفا أن أتوقف عن المسير الا انني كنت متعبا الى حد كبير فجلست على أحد الاحجار الموجودة في الطريق أشد الراحه ولو للحظات . وكنت الهج الناس وهم يتعدونني وعلى وجوههم علامات الاستهزاء والتهكم لكنني كنت في حالة من التبلد والجمود منعتني من الاحساس بالغيظ أو التبرم لما يبدون من استخفاف ، وحتى عندما مرت بي « مس دميلي » ، وهي معلمة ذات شان ، واستحثتني على المثابرة والاستمرار في السير فقد انتسمت لها فقط ورفعت قبعتي محييا اياها .

ولقد قلت في أول الامر انني سأنتهي الى نفس النهاية التي آل اليها اخي ، فلقد تركته على نفس الطريق منذ عام او عامين - لقد أضاع اخي حياته في الضياع ، واضاع قوته في مساعدة الآخرين . أما انا فلقد كنت اعظم رحلاتي بحكمة اكثر ، وما ارتمني على الاستسلام في هذه المرة الا هذا الطريق المثل الكئيب . كان الطريق مترعا ، وتحف به من على الجانبين احراش جافة سمراء ، ولقد لازمني هذا المنظر طوال سيري على الطريق .

وعلى الطريق كنت قد اسقطت اشياء كثيرة . وفي الحقيقة كان الطريق خلفي مغطى باشياء كثيرة خلفتها جسما وتحس تسير عليه . وكان التراب الابيض يغطي كل تلك الاشياء حتى بدت جميعها كانها احجار ملقاة في عرض الطريق . وكنت منهكا لا اقوى على حمل ما بقي معي من اشياء .. واضطجعت على الحجر الملقى في الطريق منهكا وانا اولي وجهي ناحية الحرش الجاف داعيا الله ان تكون تلك هي نهاية المطاف .

وهبت نسمة خفيفة بعثت الحياة في اوصالي .. وبدا لي أن تلك النسمة أتت من الحرش المواجه لي .. وعندما فتحت عيني كان هناك بصيص من النور خلال تشابك الفروع والاوراق الميتة . ولم يعد الحرش كئيبا كما كان . وفي حالتي الواهنة المخيفة وددت لو امكنني ان أشق طريقي خلاله لارى ماذا في الجانب الآخر . وعقل مدى بصري لم ار اي انسان وما كان لي ان أحرؤ على التفكير

في ذلك اذ أنا ونحن على الطريق لم يكن في محادثاتنا ما يدل على أن هناك جانبا آخر بالمرة .. واستسلمت للاغراء قائلا لنفسي انني يجب أن أعود في ظرف دقيقة واحدة . واحدث الشوك خدوشا في وجهي . واستخدمت ذراعي كدرع يقيني منه . واعتمدت على قدمي فقط كي توجهاني الى الامام .

وحينما وصلت الى منتصف الطريق وددت لو انني تمكنت من العودة فكل الاشياء التي بقيت معي كانت قد سقطت مني ، واما عن ملابسي فلقد كانت تقطعت تماما .. واصبحت عودتي مستحيلة اذ انني اصبحت محاطا بالاحراش من كل جانب . وكان على أن اشق طريقي الى الامام دون أن أرى أي شيء على الاطلاق متوقعا أن تحتويني قواي في أي لحظة وتكون نهايتي حيث أنا .

وفجأة احسست بماء بارد يحتويني ويغطي راسي . واحسست انني اغوص في اعماق لانهائية . وسقطت من الحرش الى بحيرة عميقة .. واخيرا طفوت على السطح وانا اصرخ طالبا النجدة .. وسمعت رجلا في الخامسة المواجه يضحك ويقول ضاحكا : « انظروا ! هاقد اتى واحد آخر ! » .

وبعدها جذبت الى خارج البحيرة ووضعت وانا الهث على الارض الجافة .

وحينما افقت من غيبوبتي وفتحت عيني كنت في غاية الدهشة اذ انني لا اذكر انني رايت مساحة شاسعة كتلك التي رايتها ، ونظرت فوقي فوجدت السماء رقعة زرقاء واسعة .. وحولي كنت ارى الجبال واشجار الزان العالية .. والمروج الخضراء والبحيرات الصافية .

وكان المكان يفوح برائحة العنبر .. كان كثير الشبه بحديقة أو متنزه .. وما أن استرددت انعامي حتى نظرت الى منقذي وقلت :

ـ الى اين يقود هذا المكان ؟

وقال الرجل ضاحكا ـ شاكرا لله ! انه لا يقود الى شيء .

كان رجلا في الخمسين أو الستين من عمره .. من ذلك النوع من الناس الذين لاتشق لهم ونحن على الطريق رغم انه لم يكن في تصرفاته مايدعو الى القلق . أما صوت الرجل فكان يوحي بانه شاب في الثامنة عشرة .

وصحت في وجه الرجل :

ـ لكن هذا الطريق لابد أن يقود الى شيء .

وصاح الرجل الى بعض الرجال الموجودين على سطح التل :

ـ انه يريد ان يعرف الى اين يقود هذا المكان ـ ولم تتلق ردا لكن الرجال ضحكوا وهم يلوحون لنا بقبعاتهم .

ولاحظت فيما بعد أن البحيرة التي سقطت فيها كانت في الحقيقة حفرة يحوطها من الشمال ومن اليمين ، وكان الحرش ملازما لحافة البحيرة . وكان ايضا اخضر اللون في هذا المكان ، وجذوره تظهر خلال المياه الصافية والسمك يعوم حولها . وكان المكان عامة جميلا تملؤه الازهار . واحسست أن كل هذه الاشياء ليست الا حاجزا كبيرا . وفي لحظة واحدة فقدت بهجتي . نسيت العشب الاخضر والسماء الصافية والاشجار العالية ونسيت السعادة التي ينعم بها الرجال والنساء في هذا المكان وابقيت

انه ليس الا سجنا رغم كل ماله من جمال واتساع .

وتحركنا من مكاننا ومررنا في طريق تحف به الزروع . وزحمت انه من الصعب ان اسير فلقد تعودت على ان افوق كل زملائي في المسير . وزحمت انه ليس هناك اي امتياز في ذلك مادام الطريق لايقود الى شيء .

ووقفت فجاة وانا اقول في يأس ان ذلك شيء مخيف للغاية . كيف لايستطيع الانسان أن يتقدم وان يتطور انه شيء مخيف فعلا ..

ـ نعم انا أعلم ذلك .

ـ اريد ان أقول انني في تقدم مستمر

ـ نعم انا اعلم ذلك .

ـ انا دائما نتعلم ـ نتوسع ـ نتطور .. انني في حياتي القصيرة شاهدت كثيرا من الاختراعات .. انظر مثلا هذا الـ ..

واظهر له السنومتر .. لكنه كان لايزال يشير الى الخامسة والعشرين ولم يتحرك عنها درجة واحدة . وصحت

ـ لقد توقف .. كنت اريد ان اريك اياه . كان يجب ان يسجل كل الوقت الذي سرته معك .. لكنه مازال يشير الى الخامسة والعشرين ..

وقال الرجل باتزان

ـ ان أشياء كثيرة تتوقف عن العمل هنا .

ـ لكن قوانين العلم شاملة في تطبيقها . لا بد فقط أن الماء الموجود في البحيرة هو الذي أفسد الآله .. ان كل شيء يعمل في الحالات الطبيعية .. العلم وروح المنافسة .. ان هذين الشيئين هما اللذان حملا منا ماهو نحن الآن .

وتوقفت عن الكلام لأرد التحية للناس الذين كنا نسير بهم .. كان بعضهم يمشي والبعض يتكلم .. والبعض مشغول في العمل في اي شيء .. وكان كل الناس يبدون في غاية السعادة . وربما كان من الممكن أن اكون انا الآخر سعيدا لو امكنني ان انسى ان هذا المكان لايقود الى شيء .

واستلفت نظري شاب جاء يعدو خلال الطريق ثم اختفى بحاجز صغير وراح يبكي بكاء مرا فوق أرض محروثة حتى اصبح غارقا في بحر من دموعه بدأ بعدها يعوم فيه فعلا .. وكان الرجل في الحقيقة نشطا للغاية وهو يسبح .. وسألت رفيقي

ـ هل هو سباق ؟ .. أين الآخرون اذن ؟ .

ـ ليس هناك آخرون .

قال الرجل ذلك ثم مررنا على بعض أعشاب طويلة يخرج منها صوت فتاة تغني غناء عذبا .. وقال الرجل مرة ثانية

ـ نعم .. ليس هناك آخرون .

وكنت في حيرة من أمر هؤلاء الناس وتمتمت الى نفسي متسائلا

ـ ماذا يعني كل ذلك .

وقال الرجل

ـ انه يعني ما يعني .

ثم كرر كلماته على مسمعي بهدوء كما لو كنت طفلا صغيرا ..

وقلت انا بهدوء ايضا

ـ انني افهم . لكني لا اوافق .. ان اي انتصار لاقيمة له ان لم يكن حلقة في سلسلة التطور . ويجب الا أثقل عليك اكثر من ذلك .. يجب أن أعود بأي طريقة الى الطريق الذي كنت فيه .

ـ لكنك اولا لابد أن ترى بواباتنا .. ان لنا بوابات رغم اننا لا نستعملها ابدا .

واستسلمت بادب .. ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا مرة اخرى الى البحيرة .. وفي هذا المكان اقيمت عليها قنطرة تمتد عليها بوابة عظيمة بيضاء كانها العاج .. وكانت البوابة في مكان لايوجد فيه الخرش الممتد ، وكانت تفتح للخارج .. وعندما صرت أمامها صحت في دهشة فلقد كانت تفتح على طريق يشبه تماما الطريق الذي تركته .. طريقا مترنا تحف به من على الجانبين أحراش حافة صفراء ممتدة على مدى البصر .

وصحت قائلا ـ هذا هو طريقي ..

لكن الرجل أغلق البوابة وقال لكنه ليس مكانك من الطريق .. ان الانسانية عبرت خلال هذه البوابة منذ قرون عديدة عندما تملكتها الرغبة في السير

ولم أصدق ماقاله الرجل فلقد لاحظت ان المكان الذي تركته وأنا على الطريق لايبعد اكثر من ميلين .. ولكن ملامح الرجل كانت عنيدة وهو يقول لي

ـ نعم .. انه نفس الطريق .. ولكن هذه هي البداية .. ورغم ان الطريق يبدو أمامنا مستقيما الا أنه عاليا مايتعرج .. انه لا يبعد عن دائرتنا في أي وقت بل انه يتلامس معنا في أغلب الاحيان .

وبعد ان انتهى الرجل من حديثه جلسنا بجانب البحيرة ورحت أحاول اقناعه بخطئه .

قلت له : ان الطريق يتشعب بالتأكيد .. أنا معك في ذلك .. لكن من ينكر ان الصفة العامة للطريق هي أنه يمتد للامام يتقدم .. اما الى اي هدف فهذا مالا نعرفه .. ربما يعود الى حيث نستطيع من عليه ان نلمس السماء .. بل ربما يعود الى هاويات تودي بنا الى البحر لكنه على أي حال يقود الى الامام .. من ينكر ذلك ؟ .. انه التفكير في التقدم هو الذي يجعلنا نبذل الجهد في سبيل التفوق . كل بطريقته .. وذلك يعطينا الدافع الذي يتقصك أنت وأهل بلدتك . انظر مثلا ذلك الرجل الذي مر بنا .. لقد كان يجري بسرعة كبيرة .. ويعتبر بطريقة حسنة ـ ونحوم بطريقه حسنة أيضا ـ لكن لدينا من يسكنهم الجسري بسرعة أكبر .. ومن يقفزون ويعدون بطرق أحسن .. ان التخصص عندنا يعطي نتائج تدهش لها كثيرا .. خذ على سبيل المثال هذه الفتاة .

وهنا توقفت عن الكلام لحظة ثم اكملت

ـ يا الهي انني أقسم أن هذه ميلي هي التي كانت تغني هناك .

وقال الرجل انها هي فعلا مس ميلي .

ـ مستحيل ! لقد تركتها على الطريق وعليها أن تحاصر هذه الليلة في تتردد وتقر ـ كيف يحدث ذلك ـ لقد قام قطارها من كانون ستريت في

[illegible] لكنها كانت متوقفة .

« نعم لابد أن تتوقف هي أيضا ككل شيء هنا .. مستحيل .. ان مسيرة دمشقي هي آخر شخص يمكن أن يكون هنا »

وقال الرجل بنفس ابتسامته

« ان الناس يدهشون كثيرا حينما يتقابلون .. ان الناس من كل الاجناس يأتون الى هنا .. وفي اى وقت .. انهم يأتون خلال الحرش .. المتعرقون في السير .. والذين يتعلقون على الطريق والذين يتركون للموت .. كلهم يأتون الى هنا . انني دائما اقف على شاطىء البحيرة وأتسمع الاصوات الصادرة عن الطريق .. وأكون في غاية السعادة حينما أنقذ أحدا من البحيرة التي سقطت فيها .. ان بلدنا ممتلىء بطيء مع أنها وحدت لكل البشرية »

وقلت للرجل بلطف « ان للبشرية اهدافا أكبر .. ولا بد لي أن ارتبط بها . وتمنيت له مساء طيبا .. فلقد كانت الشمس ساعتها تميل ناحية الغروب .. وقلت له انه يحاول الليل لابد ان أكون على الطريق .

ومما زادني ارتياحا ان الرجل امسك بلابيبي وهو يصيح « كلا .. لم يحن بعد ميعاد رحيلك » .

وحاولت التخلص من الرجل فليس هناك أية مصالح تربطني به بعد ذلك .. وخاصة بعد ان بدأت أعمل تحاملاته السخيفة .. ورغم كل محاولاتي للتخلص الا أن الرجل المحور المتعب لم يدعني أتعب .

واضطررت أن أتبعه .. فلقد كان من المستحيل فعلا أن أصل الى المكان الذي أتيت اليه وحدي .. وكنت أن يرشدني الرجل اليه .. وكنت مصمما على الا امضي ليلتي في هذه البلدة لأن نفسي كانت قد انعدمت بالرجل وبالناس رغم كل ماكانوا يظهرون لي من صداقة .

ورغم انني كنت جائعا الا أنني لم اشاركهم في وجبة المساء التي تتكون من اللبن والفاكهة .. وعندما كانوا يعطونني الزهور كنت أقذف بها بمجرد ان يكون في استطاعتي أن أفعل ذلك دون أن يلاحظني أحد .

وعندما حل المساء تناثر الناس نياما كانهم الماشية .. فالبعض على سفح التل العاري .. والبعض في جماعات تحت اشجار الزان العالية .

وفي ضوء الشمس المرتقالي ساعة الغروب كنت اسرع بجانب مرشدي الذي لم اعد اطيقه .. وكنت منهكا تماما .. ولكنني كنت أتمتم بغير وضوح

« اعطني الحياة بما فيها من نضال .. وانتصارات .. وبما فيها من فشل وهم أحقاد .. بما فيها من معان أخلاقية وبما لها من هدف لا نعرفه » .

***

في النهاية أتينا الى مكان من البحيرة تقام عليه قنطرة أخرى تمتد عليها نواة ثانية تحتل مكانها بين الحرش المواري للبحيرة .. وكانت هذه النواة تختلف بالنسبة لسابقتها .. اذ كانت تفتح الى الداخل .. وفي الضوء الخافت رأيت مرة أخرى طريقا كالطريق الذي تركته .. طريقا مملا .. مترعا تحف به الاحراش السمراء الخافة الممتدة على مدى البصر من على الجانبين .

وشعرت بنفسي تنقبض وشعرت بنفسي أتهاوى من شدة التعب .. ومر

هذا رجل عائد في المساء الى الجبال وهو يحمل منجلا كبيرا على كتفه وبيده وعاء به مشروب لا اعرف ماهو .. ونسيت نفسي وصديقي .. ونسيت الطريق الذي كان يمتد أمام عيني .. واندفعت خلف الرجل وانتزعت الاناء من يده ورحت اشرب .

كان المشروب الذي بالوعاء شديدا اقوى من البيرة قليلا .. لكنه ابدى تأثيرا قويا على وخاصة أني كنت منهكا متعبا لدرجة كبيرة ..

وكما لو كنت في حلم رأيت العجوز يطلق البوابة وسمعته يقول : «ان طريقك ليبتهي في هذا المكان .

وخلال هذه البوابة سوف تأتي لك كل البشرية او قل ما بقي منها .

ورغم أن كل حواسي كانت قد فقدت وظائفها الا انها قبل أن تفقدها تماما كنت قد ادركت سحر أغاني المندليب من حولي ورائحة المشمش الحلو والتي تخللت حياشيمي ... والنجوم التي كانت تتلألأ في السماء .

اما الرجل الذي اغتصبت منه الشراب فلقد انحنى الى الرفق محاولا أن يخفف عني أثره وبيدا كان يفعل ذلك اكتشفت شيئا مثيرا .. كان الرجل هو أنا ..